باب المراسلة والمناظرة

العرض عند عرب الجاهلية

بين الاب لامنس المستشرق وصاحب الكتاب

بقلم بشر فارس

يعلم قرّاء المقتطف التي اخرجت كتاباً باللغة الفرنسية عنوانه « العرض عند عرب الجاهلية »* (ارجع الى مكتبة المقتطف يونيو ١٩٣٣) وبه نلت شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس وقد أراد الله لهذا الكتاب ان يظفر برضى المستشرقين فصلاً عن نقاد الصحف والمجلات في الشرق العربي وفي اوربا. الاّ ان الاب لامنس المستشرق المقيم ببيروت والكاتب في مجلة المشرق بدا له ان يعيب كتابي. فعقد في «المشرق» (يوليو ١٩٣٣ صفحة ٥٤٨) فصلاً ذهب فيه الى ان في كتابي مواضع للنكير والغمز. فرددت عليه من فوري. فأبى ان ينشر ردي، بل عاق عليه تعليقاً مضطرباً. فأدركته بردّ آخر كان حظه حظ الاول. وكأني بالاب لامنس يعيب كتابي ثم يأبى ان ينشر اجابتي لاني تتبعت تآليفه عن العرب تتبع من لا يعرف المواربة ولا التراخي. وبان ذلك اني اخذت عليه تحامله على الاسلام واستخفافه بالعرب، ثم اشرت الى سقطاته في الترجمة وأوهامه في التعليل ونبهت الى اضطراب مصادره. هذا، ثم اني لما رأيت مجلة المشرق قد سدّت دوني، خروجاً على سنة المناظرة فزعت الى المقتطف الرحب وهاءنذا انقل ما دار بيني وبين الاب لامنس

اولا — نقد الاب لامنس الاول

الشرف (العرض) عند العرب قبل الاسلام

لقد كان من السهل لخمسين سنة خلت، ان يؤلف كتاب كهذا. وذلك ان الناس كانوا يقرّون اجمالاً بصحة نسبة الشعر الجاهلي بكامله وبصحة نسبة الاحاديث المتعددة وما اليها من نوادر وشروح وتعاليق اما اليوم فقد اصبح العلم ينظر نظر الشاك الى الكثير من هذه المواد. على ان المؤلف لا يجهل ذلك، بل يعرف خاصة لنظريات طه حسين في الموضوع، ويحاول تفنيدها بطريقة تضطرب بين النجاح والفشل

هذا والكتاب حسن الطبع، مقبول المظهر، لا بأس في انشائه الفرنساوي (كذا) على الغالب، ولا بأس كذلك في اسلوب البحث فيه وهو الاسلوب الذي استفادهُ المؤلف من اساتذة علم العمران في فرنسا. اما مواد البحث فتظهر كافية على الغالب. الاّ ان المؤلف لا يستند في اكثر قياساته الاّ

* L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam

الى كتاب او اثنين من مؤلفات العرب . فضلاً عن ان كثيراً من الاستنتاجات لا تركز على اس متين ، حتى يسهل (كذا) على الناقد ان ينقضها بعشرات الشواهد تفيد عكس ما يرمي اليه الكاتب. وفوق ذلك تراه يستند ، في ما خص حادثة جاهلية ، الى الدكتور غوستاف لوبون . وهذا لعمري غاية الغايات ، اذ لا يخفى على احد ان ذاك الطبيب لم يكن ليحسن كتابة اسمه بالحروف العربية

ثانياً — ردي على هذا النقد

حضرة رئيس تحرير مجلة « المشرق الغراء »

أما بعد فقد اطلعت في « المشرق » على نقد للكتاب الذي ألفتهُ وعنوانهُ « العرض عند عرب الجاهلية » ، ولي في ذلك النقد آراء ، وفي مأمولي ان يفسح لها مكان في « المشرق »

ان ناقد كتابي يأخذ عليَّ معالجة موضوع عولت فيه على الشعر الجاهلي على حين هذا الشعر مشكوك في صحته . والحقيقة انني لم اعتمد عليه اعتماد من يريد ان يفحص عن الادب الجاهلي ولكني استندت اليه لأدل العقلية الجاهلية ذهاباً مني الى ان ذلك الشعر يدل عليها ويشف عنها وان كان غير صحيح ، دلك بان الذين وضعوه كله او بعضهُ حملوه على شعراء الجاهلية فاضطروا الى ان يعارضوا الشعر الجاهلي المعارضة كلها فجاءت قصائدهم على نحو قصائد الجاهليين مبنىً ومعنىً ، ولقد بينت ذلك في مكانهِ (ارجع الى ص ٩ وما يليها) . ثم ان الناقد يأخذ عليَّ رجوعي الى الحديث النبوي، فانهُ بعده موضع نظر بل محل شك . والتحقيق انني رجعت اليه على غير اندفاع ولا تهور . هذا واني اقمت ميزاناً موزوناً بين فقه اللغة والتقرائن في سبيل تمحيص الاحاديث التي عولت عليها (ارجع الى ص ٦ و٧ الحاشية). وبعد فما لا مساغ فيهِ للشك ولا مجال للجدل انهُ لا منصرف عن الشعر الجاهلي والحديث لمن يريد ان يتدبر الجاهلية

ثم ان الناقد يحكم في بعض فصول كتابي متقدماً اياها طاعناً فيها دون ان يقيم الادلة على حكمه . مثال ذلك قوله «ان طريقة تفنيدي لآراء الدكتور طه حسين تضطرب بين النجاح والفشل» وقوله «لا بأس في اسلوب بحثي » ، وقوله « ان مواد البحث تظهر كافية على الغالب » ، وقوله « ان استنتاجاتي لا تركز على اس متين ، حتى (كذا) يسهل على الناقد ان ينقضها بعشرات الشواهد تفيد عكس ما ارمي اليه »

وهنالك مطاعن لا تثبت عند النظر . منها قوله انني استشهد بالدكتور (غوستاف لوبون) . والحقيقة انني لم اعتمد على تصانيف الرجل الاَّ في تحفظ وحذر . (وقد صرحت بذلك في ص XXII) والدليل على قولي هذا انني ذكرت كلامه ثلاث مرات : مرة حين تحدثت عن الحياة الصحراوية الشاقة (ص ١٢٠) ولا يختلف اثنان في هذا . وأما المرتان الاخريان (ص ٢٤ ، ١٧٦) فلم اذكر (غوستاف لوبون) الاَّ في تحفظ ما بعده تحفظ ، وشاهد ذلك انني نقلت كلامه في صيغة الشك والاحتمال التي يفطن اليها كل من له اطلاع على النحو الفرنسي . ومن تلك المطاعن أيضاً قوله « انني لا استند في اكثر قياساتي الاَّ الى كتاب او اثنين من مؤلفات العرب » . والواقع انني عولت في تصنيف كتابي على ما يزيد على سبعين مصنفاً عربياً قحًّا (ارجع الى جدول المصادر)

على انني اذكر الآن من تلك المصادر «القرآن والحديث والسيرة وكتب التاريخ التي ترجع الى الجاهلية وصدر الاسلام والمئات كتب الادب والاخبار كمثل كتاب الاغاني والبيان والتبيين للجاحظ وكتاب الحيوان له وكتاب البخلاء له والعقد الفريد لابن عبد ربه والاشتقاق لابن دريد والاصنام لابن الكلبي والمعارف لابن قتيبه وعيون الاخبار له والميسر والقداح له وطبقات الشعراء لابن سلام ومجمع الامثال للميداني والكامل للمبرد والامالي للقالي والعمدة لابن رشيق والمزهر للسيوطي ثم الحماستين وديوان حسان وديوان السمؤأل والمفضليات وشعراء النصرانية، فضلاً عن المعجمات وكتب اللغة»

ثالثاً — تعليق الاب لامنس على ردي (المشرق ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣)

لقد أثار وصفنا لكتاب الأديب بشر فارس (في مشرق هذه السنة، ص ٥٤٨ — ٥٤٩) حماسة المؤلف فأحفلنا بكتاب طويل، نسي فيه ان يشكر لنا التقريظ (كذا)، ولكن لم ينسَ ان يحتج شديداً على النقد. اما نحن فليس علينا الاّ ايضاح واحد، وهو اننا لم نقل ان المؤلف يجهل موضوعه، بل اشرنا الى انهُ يكتفي غالباً بشاهد او شاهدين في تأييد أمر يسهل على الناقض نقضه بعشرة شواهد تفيد عكس ما يرمي اليهِ الكاتب

رابعاً — تعليق على ايضاحه

نشرت مجلة «المشرق» الغراء في عددها الصادر في يوليو هذه السنة كتابي «الغزل عند عرب الجاهلية» الذي الفته باللغة الفرنسية فرأيت في ذلك النقد ما لا يجدر بكتابي فبعثت الى «المشرق» رد على ذلك النقد ولكنهُ لم ينشر «لشدة اسلوبه»؟ الاّ ان صاحب النقد عاد الى الموضوع في شهر نوفمبر الماضي فصرح بأنهُ لم يأخذ عليّ الاّ شيئاً واحداً هو اكتفائي غالباً بشاهد او شاهدين في تأييد أمر يسهل على الناقد نقضه بعشرة شواهد تفيد عكس ما يرمي اليهِ الكاتب

والذي عندي ان النقد لا يثبت على هذا النحو. ولقد كان يحق لمن نقد كتابي ان يضرب الامثال فيما يذهب اليهِ. هذا ثم ان صاحب النقد رأى انني لم اشكر له ثناءه على كتابي فاني اعتذر اليهِ من فعلتي. على انني لم اقطن البتّة انه وصف كتابي الوصف الحسن

* * *

ذلك ما دار بيني وبين الاب لامنس ثبّت الله قدمه

والذي استخلصه من هذا كله ان الرجل تقدم عليّ دفعي بعض نظرياته وأقواله في العرب والاسلام. وعندي ان الاولى بالاب لامنس ان يبارزني في الميدان الذي جلت فيه فيصرعني والحجج المواضي بين يديه. فان العلم لا يدفع الاّ بالعلم وان بدا الاب لامنس ان يجادلني بعد هذه فليبادر — بادىء بدء — الى التدلل بما رميته بهِ وليسع سعيه في رد الاوهام المختلفة التي نسبتها اليهِ من طريق علمي

ووالله ثم الله لولا اني رأيت واحداً ممن يلحق بالمستشرقين قد طاب نفسه من نواحي كتابي مستنداً الى نقد لامنس لما شغلت باب المراسلة والمناظرة الى هذا الحد. واما ذلك الذي طاب كتابي فلقد ارسلت الى المجلة التي نشر فيها نقده («دير اسلام» الالمانية بالعدد الاخير) ما يدفع قوله دفعاً